Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وابحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

فنية الرمزوجمالية الصورة في ديوان براءة لعثمان لوصيف

The artistry of the symbol and the aesthetics of the image in the collection of innocence by Othman Loussif

د عثمان مقيرش

جامعة محمد بوضياف المسيلة

athmane.meguireche@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 31- 12 – 2023 تاريخ القبول: 02-04-2024

الملخص:

يعد الرمز من أبرز الملامح الأسلوبية في التجربة الشعرية، وحضوره فيها يجعل من اللغة الشعرية قادرة على الإيحاء بما يستعصي على التحديد من مشاعر وأحاسيس وأبعاد الرؤية الشعرية المختلفة، فالرمز تقنية من تقنيات بناء القصيدة الشعرية الحديثة، حيث دأب الشعراء على الاستعانة به في أساليبهم الشعرية تعبيرا عن تجاربهم وما تحمله من أفكار شتى تتسع وتتعمق باتساع وعمق أبعاد الحياة الاجتماعية الحديثة التي يعبّرون عنها وتبرز في أشعارهم بطريقة تقوم على الإيحاء وتنأى عن نمطية التقرير والمباشرة التعبيرية التي تفقد الشعر جماليته، ذلك ما نستنطقه من ديوان براءة لعثمان لوصيف الذي يعُج بالإيحاءات والرؤى الصوفية. فخصوصية الرمز إذا تتمحور في شتى فروع المعرفة الإنسانية، الدينية، النفسية، الاجتماعية واللغوية، ولا تختص بمنحى أو رؤى معينة.

الكلمات المفتاحية: الشعر- الرمز – ديوان براءة – الرؤى – التصوف.

Summary:

Symbol is considered one of the most prominent stylistic features in the poetic experience, and its presence in it makes the poetic language capable of suggesting the feelings, sensations, and different dimensions of the poetic vision that are difficult to define. Symbol is one of the techniques of constructing the modern poetic poem, as poets have always used it in their poetic methods of expression. About their experiences and the various ideas they carry that expand and deepen with the breadth and depth of the dimensions of modern social life that they express and emerge in their poetry in a way that is based on suggestion and distances itself from the stereotype of report and expressive directness that makes poetry lose its aesthetics. This is what we infer from the collection of innocence by Othman Loussif, which is full of Sufi revelations and visions. The specificity of the symbol is centered in various branches of human knowledge, religious, psychological, social and linguistic, and is not specific to a particular approach or vision.

Keywords: poetry - symbol - collection of innocence - visions - mysticism.

-مقدمة:

في تقديم «حقيقة مجردة أو شعور أو فكرة غير مدركة بالحواس في هيئة صور أو أشكال محسوسة»[1]، وبالتالي فقدرة الرمز الشعري تأتي من قدرة الشاعر في تحويل المادي المحسوس إلى أمر نفسي وشعوري، ومهمته التصويرية أيضا في نقل الشعور والأفكار غير المدركة بالحواس إلى صور ومواقف محسوسة، فالرمز «هو اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة، أو هي القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة، إنه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف عالما لا حدود له»[2] بحسب تعبير أدونيس، فالرمز معنى خفي، إيحاء، وامتلاء ينقلنا إلى أبعاد قصية ويوقظ في النفس معانيه الماورائية.

أولا: الرمز الصوفي

التجربة الصوفية تجربة الوصول إلى المطلق وتعبير الذات عن الحقيقة فيها، أو ما نظنه أنه الحقيقة لا يستنفدها، بل إنه لا يقولها، وإنما يشير إليها ويرمز، ولذلك يكثر استخدام الرمز الصوفي في الكتابة الصوفية، وعلى الرغم من توظيف الصوفية لمفردات لغوية وصور قد تبدو دلالاتها واضحة، فإن الشاعر لا يهتم بتلك الدلالات، إنما ينشغل بالحقيقة الكامنة فيها، ذلك أن «للأشياء لغتها التي لا ينفذ إلى قراءتها إلا الملهمون القادرون على فض ما تنطوي عليه من رموز وشفرات»[3]، ولذلك كانت كل كلمة عندهم رمزا يفوق الحس، وألفاظ اللغة موضوعة أصلا للمحسوسات، وما نلحظه من التعبير عما هو غير محسوس بمثال محسوس يضفي على الرمز الصوفي قابليته للتأويل بأكثر من وجه، وضمن أنساق رمزية جديدة «فالشعراء الصوفيون هم أول من مارس إعادة التشفير اللغوي في الشعر قديما عن طريق نزع الدلالات الأولى الحسية والدنيوية بكلمات تتصل بمجالات الجنس والخمر وحالات النفس لإدراجها في أنساق رمزية جديدة ومستحدثة».[4]

ويأتي اهتمام الشاعر عثمان لوصيف بالرمز الصوفي في سياق تجربته الشعرية وسعيا منه لتشكيل لغته الحداثية مرتكزا على الخطاب الصوفي ومستفيدا من دواله ومدلولاته المختلفة في إثراء تجربته الشعرية والارتقاء بنصه إلى مراتب الشعرية.

1-رمز الخمر:

يعتد رمز الخمر من أقدم الرموز في التجربة الصوفية، حيث طوع الصوفيون الخمر رمزا للتعبير عن تجربتهم الفريدة والمتفردة، إذ هو «أحد أهم الرموز التي استخدمها الصوفية في نصوصهم، فهم يلوحون به إلى جملة من المعاني الذوقية معتمدين الألفاظ المعروفة في المعجم الخمري، فيذكرون الساقي، والكؤوس، والدنان وغير ذلك توصلا إلى إقامة علاقات تشف عن أحوالهم وسرائرهم»[5]، فهو رمز من رموز الوجد الصوفي، والديوان يحفل وينضح بألفاظ السكر والخمر، وهي ألفاظ تعبر عن خمرة خاصة هي خمرة الحب، الخمرة الإلهية المقدسة، وقد جاء ورود لفظ الخمر بمسمياته أو بما يحيل عليه نذكر منها: (الراح، النبيذ، النخب، الخشخاش، القدح، تشف، السكر، الكؤوس...)، ومن تجليات هذا التوظيف للرمز قوله:

ويختلج الماء عبر المدى حبقا وحميا
إلى أين يمضي بنا السكر يا عشق
أين حدود غوايتنا
أين..أين القرار؟[6]

فالسكر بوصفه من الظواهر الروحية العالية، حيث طوع الصوفيون هذه الألفاظ المشعة تعبيرا عن تجاربهم وأذواقهم، ومدلول لفظتي (حميا، السكر) تعبير عن هذا الوجد الصوفي، يقول القشيري: «السكر غيبة بوارد قوي، وأنه زيادة على الغيبة، وإذا كانت الغيبة للعباد بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة ومقضيات الخوف والرجاء، فإن السكر لا يكون إلا لأصحاب المواجد»[7]، وهي حالة وجد صوفي تتلبس بالعشق، فيزيدها انفعالا وتدفقا، نهر من الوجد فسيح الأمواه، لا نهاية له ولا قرار، ويبدو أن حالة السكر هذه هي «أكثر الأحوال الصوفية امتلاء بالتوتر والحركة المتجهة إلى الخارج في مد مندفع وشعور غامر بالنشوة»[8]، يقول عثمان لوصيف:

كنت في زخم السكر أبحث عني

وناديت عبر الشوارع ناديت: عثمان..عثمان.[9]

هي أحوال الوجد والسكر المعنوي التي تفيض بها النفس من الامتلاء بالحب الإلهي والوجد الفياض، ورحلة بحث للذات عن المعرفة والحقيقة واستكناه أسرارها، فتذهب عنهم ظلمة الغفلات وتشرق على قلوبهم أنوار التجليات، ويحصل لهم السكر فيغيبوا عن أوهام الأغيار تحققا بمعاني الأسرار.

من أزاح الليل عن جفني

من مسد أعصابي الطريه

وسقاني حبقا..مسكا..وراحا كوكبيه.[10]

هذه الراح الكوكبية التي توحي إلى نورانية العقل الإنساني تبعث في شاربها ظلالا من المعاني ونبض من الحياة، إن نهل من معانيها وأترع منها كؤوسه انتشى وحيا من جديد «كالميت بالجهالات والشهوات يبعث إذا ما ذاق هذه المدامة الإلهية والمقعد الذي لا نهوض له إلى معرفة ربه، فإنه متى ولج ليل الواجد وسكر بشراب المحبة المنزهة أنهضه هذا الشراب وابتعث إرادته وهمته»[11]، فهو سكر يفضي إلى العزم وحالة الوجد التي رمز إليها الصوفية بالخمر والسكر الإلهي.

إن حضور الخمرة أو رمز الخمر في شعر عثمان لوصيف ملمح أسلوبي وبنية أسلوبية فاعلة تتعالق مع بنيات أخرى في رسم هذه الصورة الرمزية والمشيج الرمزي الذي يعكس «أشكال العلاقات القائمة بين المرئي واللامرئي»[12] بما أضفى على التجربة الشعرية جدة لم يقف الشاعر فيها عند الدلالات الصوفية بما تحمله من معاني عرفانية وأحوال ومقامات، بل تعداها إلى أفق أرحب وتجاوزها إلى عوالم أوسع.

2-رمز المرأة:

وردت ألفاظ المرأة بشكلها المباشر وبألفاظ دالة موحية ضمن العديد من تضاعيف قصائد الديوان، نذكر منها: (أنت، فاتنة، مجنونتي، ممتلئة، أميرتي، امرأة، معبودتي، سيدة الشعراء، الغادة الحسناء، النساء، الحبيبة، بثينة، لبنى، سعاد...)، يقول عثمان لوصيف:

جمالك يغمر كل الوجود

أحسك في روعة الفجر

أسمع صوتك بين النجوم

وألمس ريحك في كل زنبقة تتفتح

أو غيمة شارده.[13]

من خلال المرأة كان عثمان لوصيف يستشف الوجود الإلهي في أكمل صورة وأبدعها ويستقيه من تلبس الجمال الأنثوي بالجمال الكوني في روعة الفجر ويسمع صوتها السحري بين النجوم، ويلمس ريحها في كل زنبقة أو غيمة شاردة، وكل تأمل وافتتان بمشاهد الجمال الطبيعي يعني في عمقه كما يرى بشلار «تعويضا لغياب مؤلم وملء لفراغ ينخر الإنسان ووجدانه»[14]، فالمرأة هي تجلي لهذا الوجود المطلق، بل هي أفضل مظاهر تجليه، لذلك

يداوم على حبها ويعشق كل جميل في هذا الوجود، والمرأة جوهر الوجود الذي يسكن وجدان الشاعر، يقول عثمان لوصيف:

من يحررني من نواميس سحرك
يا امرأة من طقوس البدايات؟
تبتسمين فترقص نحلة قلبي
على أقحوانة ثغرك.[15]

وتحول السر الأنثوي إلى حديقة ندية الأزهار، فهاجت أسارير وتهدجت مشاعر، حيث صار حضور المرأة فيضا جماليا يشهد فيه الشاعر تجليات وآثار الجمال الإلهي المطلق، يا امرأة من طقوس البدايات؟

إن دخول المعنى في قالب الصورة هو «نوع من الستر والإخفاء للطافة المعنى ذاته ولأنه الرمز الذي يلتقي فيه الظاهر والباطن وإيجاز الشامل واختصار المجمل وحصر اللانهائي»[16]، وفي ذلك تتجلى صوفية عثمان لوصيف في أبهى حلة وأينع صورة، يقول:

تلك صوفيتي
أن أطالع في نور وجهك
سر الحياة
وسر الغوايات
أن أتوضأ بالعشق في ظل عينيك
حيث ترفرف تسبيحة الكون
أن أتبدد في دهشتي
عبر نزوة إشراقة
وأعانق فيك النهائي واللانهائي
في لحظة واحدة.[17]

في هذا المقطع حشد الشاعر جملة أحوال، وهو ينقل ظلاله وأغواره إلينا أو قل: إليه هو ليطل منه على الهوى (ج هوة) السحيقة التي تتلاطم فيها نوازعه وصبواته حيث اتحدت الرؤى واللظى المحرورة في الأعماق.

يا ممتلئة ولها وصبوة
يا ضائعة في الضباب

والمرأة رمز للافتنان ومجلى من المجالي الإلهية، ففي نور وجهها يطالع الشاعر سر الحياة وسر الغوايات، وفي ظل عينيها يتوضأ بالعشق، وبها يتم فهم الإنسان والكون معا، حيث ترفرف تسبيحة الكون وتتبدد الدهشة ويزول الغموض، هذه اللمع الشعرية التي تسبر أغوار النفس وتفز من فوق الحدود والخطوط التي تشكل الفضاء الفني لتكون الشرانق الإبداعية وهيئات المعاني وأحاسيس الذات.

ومن ضروب الاستخدام الأنثوي هو استخدامها معادلا لحب الوطن، وعثمان لوصيف يمثل الوطن أو جزءا منه كمدينة من المدن بالمرأة كما في قصيدة وهران، يقول لوصيف:

أنت هسهسة النهد تحت ارتفاف القميص المخدر
تغتغة الخصر كسره الغنج
تنغيمة الخطوات الرشيقة فوق الرصيف
رفيف الجفون مكحلة بالجنون
وهفهفة الخصلات الشذيه.[18]

فالشاعر يعمل على استبطان المعاني اللامرئية لوطنيته الغالية والغائرة في مطاوي النفس ومحاريب التخييل الموغل في انبعاث شوارد الأحاسيس التي زاغت عن فوهة الوعي وشرفة البصيرة الشعرية مغرقا في تصوير العناصر المحسوسة للأنثى كرمز فني، مسقطا الدلالات المادية ومحتفظا بالإيحاءات الإنسانية الرحبة.

لقد كان رمز المرأة ملمحا أسلوبيا آخر أضفى على القصيدة جمالا أنثويا طافحا، عبر بها عثمان

لوصيف عن العديد من الرؤى والمعاني في سياق تجربته الشعرية.

3-رمز المعرفة:

الحب قسيم المعرفة «والمعرفة لازمة للحب، وهي إحدى دواعيه وأسبابه ومن عرف عن الله أكثر أحبه أكثر ومن لم يعرف عن الله إلا القليل كان حبه على قدر معرفته»[19]، فالصوفية طائر بجناحين: المحبة والمعرفة، وإن اختلف الصوفيون في تقديم أحد الحالين على الآخر، فكان بعضهم «يقدم المحبة على المعرفة والأكثرون يقدمون المعرفة على المحبة، وعند المحققين: المحبة استهلاك في لذة والمعرفة شهود في حيرة وفناء في هيبة»[20]، وهو في عرف الصوفية آخر الطريق المفضي إلى الحضرة والدنو من ذات الحق من فرط المحبة ومن فرط المعرفة، وقد اعتمد عثمان لوصيف على جملة من الألفاظ الموحية والدالة على المعرفة، نذكر منها: (القلب، النبض، الكشف، الرؤيا، السؤال، المدارات، السر، الإشارة...).

يقول:

وأنا العاشق المتصوف
عانقت كل المدارات
كل البروق
وكل المرايا
أفتش عن منتهايا
أفتش عن سدرتي...
ما ارتوى القلب يوما ولا هدأت مهجتي.[21]

يعبر عثمان لوصيف العاشق المتصوف عن رغبته الجامحة ولهفته للاغتراف من فيوضات المعرفة الربانية، يطوف الكون ويعانق المدارات ليروي غليل القلب ويطفئ المهج، فالقلب ينبوع الحب والحب مطية السفر للحضرة الإلهية ومورد الواردات والإلهام الفياض، فهو مركز المعرفة «وعندما تضيء شمس المعرفة من فلك هذا الطريق العالي الصفة فسيصبح كل فرد مبصرا قدر استطاعته ثم يجد الحقيقة»[22]، والتي يعد البحث عليها سفرا مضنيا ينتهي بالطالبين والعارفين للظفر بأنفسهم بغية الوصول لمرادهم:

ثم..حين رجعت إلى الأرض
أحتضن الطين والياسمين
تجليت في أفقي
واكتشف بأن سمائي
تختفي في عيون النساء.[23]

والكشف معرفة وحركة دائمة يكشف من خلالها عن امتداد النفس والوجود، والعلاقة بين الإنسان والله «فالمعرفة الحقيقية هي معرفة الشيء من داخل، فلا نعرف الوجود إلا بالشهود: أي بالإشراق».[24]

ومن ألفاظ المعارف التي يكررها الشاعر لفظ (القلب) وما يحمله من دلالات، فالقلب مصدر الحب، والحب هو الطريق الموصل إلى الله، وبه يحصل الوجد:

عانقت كل المدارات
كل البروق
وكل المرايا
أفتش عن منتهايا
أفتش عن سدرتي...
ما ارتوى القلب يوما ولا هدأت مهجتي.[25]

فالمعرفة الصوفية موطنها القلب الذي امتلأ بالله «فرحا وسرورا ويقينا، فانشرح الصدر وانفتح فصارت الآخرة له كالمعاينة ولاحظ الملكوت بتلك العين، عين الفؤاد في فسحة ذلك النور المشرق في الصدر فرأى شأنا عجيبا من عظمة الله»[26]، فمعرفة الصوفية نداء داخلي يمتلأ به قلب الصوفي، ولهفة للاغتراف والري من فيوضات المعرفة الربانية، والمعرفة الصوفية لا تجنح

للبحث عن الحقيقة خارج الذات، ولا يبحثون عن الله خارجها لأن شعورهم الدائم بوجوده وشهوده قد ملأهم يقينا به وطمأنينة إليه فهو «عند العارفين حاضر قريب يتحققونه في ذواتهم ويناجونه بقلوبهم فيتجلى لهم مشرقا مضيئا»[27]، ومن ثم لا يولي هؤلاء القوم اهتماما للعلوم العقلية وغيرها، لأنها لا تغني في معرفة الله ولا سبيل لها لمعرفة السر الإلهي، وفي ذلك يقول الحلاج:

من رامه بالعقل مسترشدا أســـرحه في حيرة يلهو

ومن الرموز الصوفية رمز النار الباطنية:

يقول عثمان لوصيف في أنشودة النار:

أين ترمين بي
في متاهات هذا الضباب
وعبر الأعاصير عبر العباب؟
أفي كل يوم لهيب جديد
وفي كل يوم رحيل جديد؟
أبارك مجدك أيها القوة الباطنية.[28]

هذه النار التي يتحدث عنها الشاعر غير النار العادية التي تدرك بالبصر وتنال، بل هي نار لا يرام كنهها ولا يدرك سرها وأسرارها إلا القليل، يقول أبو محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري[29]:

نارنا هذه تضيء لمن يسـ ري بليـــل لكنها لا تنيل

منتهى الحظ ما تزود منه اللحـــظ، والمدركون ذاك قليل.

فهذه النار وإن كانت تضيء للساري ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإنها لا تعدو عالم الحس لارتباط له بها وانتفاع بها فيه، أما هذه النار الباطنية، النار المباركة التي تقود إلى الحق واليقين إلى عالم الطهر والإيمان والخلود، فمطلب من رامها عسير، عقبات دونها عقبات، لذلك تراهم يبذلون نفوسهم والمهج بغية اقتحامها وتبديد ظلمات الحيرة والتيه بأنوار البصيرة «وتحقيق صبوة الروح للتماس مع الحقيقة التي تعذب كياننا».[30]

ثانيا: الرمز الطبيعي

احتفى الشعر العربي منذ عصوره الأولى بالطبيعة أيما احتفاء، فتغنى بها الشعراء ووصفوا ظواهرها المتنوعة وإن ظل على نحو حسي مباشر، فقد امتزج بعض هذا الشعر الطبيعي الوصفي شيء من العواطف والمشاعر الذاتية، ولقد أهاب المتصوفة بالطبيعة التي تحولت من خلال الموقف الروحي والتشكل الغنوصي للتجربة الصوفية «في إهابتها بالعلو المحايث إلى شفرة أو شفرات يقرأ الصوفي فيها بضرب من الكشف لغة ذات حدين إحاليين أحدهما حسي فيزيائي والآخر روحي إلهي»[31]، وقد تنوعت رموز الطبيعة في الديوان بين رموز استلهمها الشاعر ودلالتها من مدركات وصور حسية كالجبال والصحاري والأطلال وغيرها، وأخرى استمدها من الطبيعة عندما تخصب وتهتز كالودق والورد والندى والخمائل تصدح على أفنانها العنادل إلى غيرها من الألفاظ الطبيعية التي هي رموز تبدو من حيث «بناؤها الرمزي في الشعر متضادة تجمع بين صور وكيفيات متقابلة»[32]، وهذا الحضور القوي للظواهر الطبيعية في الديوان يبين مدى ارتباط الشاعر بالطبيعة وعالمها النقي، وعلى مدى عالم الشاعر المليء بالأحاسيس والوجد والتأمل.

1-رمز النار:

يعد رمز النار من أهم الرموز التي استخدمها الصوفية في نصوصهم، حيث لها دلالاتها الخاصة، والتي يستدعيها المعجم الصوفي بما يتساوق والمعنى، ومن ثم فإن كل «لفظة تؤدي في سياقها الشعري أداء خاصا يتسم

بالانسجام والموائمة مع الموقف النفسي أو الفكري أو الوجداني»[33]، ومن ثم الملمح الإبداعي، وتتجلى هذه المفردة الرمز في الكتابة الشعرية لدى عثمان لوصيف في سياقات مختلفة وردت بشكلها المباشر وبألفاظ دالة موحية أخرى أهمها (النار، اللهب، الشرر، المشاعل، تتوقد).

يقول عثمان لوصيف:

آه... أيتها النار

في البر والبحر تشتعلين

منغمة جوعك الأبدي

ولا شيء يوقف تيارك المتوحش.[34]

فالنار مدعاة للتأمل والاستغراق، حيث يقف الشاعر أمامها طويلا يحاورها ويتأملها ويحاول النفاذ إلى كنهها، علّه يقبض جذوة منها تشفي غليله وروحه العطشى لفهم سرها وفك لغزها، وهي على شاكلة أخرى جزء من أديم هذا الجسد حين تمتزج ذاته بها، وتمتزج هي به فتحل فيه ويحل فيها، وينصهر فيها وتذوب فيه، يقول عثمان لوصيف:

في البدء كنت

وفي البدء عانقت روحي اليتيمة

والآن..هاتي يديك المضرجتين

لأعجن جرحي بجرحك

ولننصهر شبقا في شبق.[35]

وتأتي في سيرورتها العاجلة والآجلة تتلظى باللرغبة في التغيير فيزداد أوارها ويشتد لهيبها ويتطاير سقطها في المدى، تلتهم سويعات الزمن تلتحف به وتسابقه:

أفي كل يوم لهيب جديد؟

وفي كل يوم رحيل جديد؟

هي لحظات لغربة الذات، زادها الاستفهام اغترابا وأذكى لهيب المعنى.

وتتحول النار إلى أنشودة راعشة من دفق القصيدة ضرامها، ومن وحي الوطن المفدى وقودها، فهو يعبر عن نار وطنيته التي يشعر بها ويعايشها، فجاءت النار كأداة تفسيرية لمعنى الوطن منبع الحب ومعبد الابتهال والحلم المشتهى، وفجر يمرق عبر الديناميس يمحو آية الليل ويضيء العتمة:

أنت الغربة والحلم

والرعشة الأزلية بين الأصابع

أنت عذاب القصيدة

في صمتها الدموي

وأنت ابتهال النزوع الخفي

وفلكي التي تتطلع

عبر الديناميس نحو الفلق.[36]

وحضور النار ورمزيتها مرتبط بالمرأة في شعر عثمان لوصيف ملمح أسلوبي بارز في إطار تجربته، وحالة من العشق تبلغ ذروتها ويشتد عنفها إذ هي «تتحرك في فضاء الفاجعة إن الإحساس العاتي بمحنة الوجود هو مفجر أساسي لهذه التجربة»[37]، ومن ثم تطعيمها بهذا الألق الإبداعي، يقول عثمان لوصيف:

أوقدي النار إن الظلام يحاصرنا

والمدينة ترتج مذعورة

من دوي الصواعق

والموت يركض عبر الشوارع

والزمهرير يزمجر في دمنا

أوقدي النار واقتربي

ثم قولي: أحبك

ولتنصهر هذه الطينة البشرية

في شعلة خالده.[38]

فالنـار هنـا تبعـث علـى الإحسـاس بالـدفء والطمأنينة في واقع يبعث على الفاجعة، فالشاعر يفر من واقعه البائس إلى عالم مثالي يمنحه خلودا آمنا، ومثل هذا الإحساس يتحقق عند الشاعر في أشد لحظات الحب حميمية والتهابا.

2-رمز الضوء:

يأتي رمز الضوء موزعا على قصائد الديوان بنسب متفاوتة وبشكله المباشر أحيانا وبألفاظ دالة موحية أحيانا أخرى، فيما يربو عن العشرين لفظا، منها ما هو مكرر ونذكر أهمها (الضوء، البرق، الأشعة، لألأت التوهج، القبسة، الشعاع، النجم)، حيث يحفل هذا الشعر «بحشد كبير من الصور والكشوف النورانية التي تشع بنورها في الكون، فيتهلل الوجود ويتشح الكون بالبهجة والسرور ويغدو الشاعر ذاته فيضا من النور يصاعد إلى النور ويمشي فوق النور»[39]، فهذه النوارنية ملمح أسلوبي بارز في أسلوب عثمان لوصيف وبين تضاعيف قصائده، يقول:

يومض البرق فتنثال المرايا
بين عيني شفيفات نديه
يا رذاذات السماوات البهيه
يا غصون البرق
يا نبع التجلي..
ظمئت روحي وجنت شفتايا.[40]

فالوميض الذي يصدر عن البرق هو ما يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب الإنسان من النور والمعرفة للوصول إلى الحقيقة، ولفظ المرايا توحي إلى الرؤية الصوفية، حيث المرايا شفيفات يرى من ورائها، في لمعة البرق وومضه صعودا نحو التجلي الصوفي والتوهج الأبدي ومعانقة لحميمية الروح وارتواء من اللذة الإلهية.

آه
يا امرأة تتوشح بالضوء
من عصر الشفق الأرجواني
في مقلتيك المخدرتين بسحر الرؤى
من كساك جمالا تغوص الكواكب فيه
ومن فض بين يديك مزاميره القدسية؟[41]

قبسات نورانية تتوشح بها المحبوبة لحظات التجلي، لحظات الإشراق والإقمرار والتي تحل في الذات أشعة تضيء الجوانح ونبض من الوميض الإلهي يرشده في مدلهمات الخطوب وحالكات الظلم.

ولكنني الآن متحد بالأشعة
فليهبط الليل ما شاء
ولتغرق الشمس
في لجة الشفق الدموي.[42]

فالأفق رؤى شفيفة التقاسيم والشفق مخضوب المعالم، والليل رغم العتمة المدلهمة، مضاء بالنور وشعاعا من الطهر والنقاء والصفاء «تكون قوى النفس فيه كالمرايا التي تنعكس عليها الموضوعات التي توجد منتقشة في عالم آخر هو عالم الخيال أو المثل المعلقة»[43]، والتي متى استعدت قبلت الانعكاس، فتنتقش فيها جملة من هذه الأنوار والأشعة بحسب استعدادها لقبولها.

صاعد في خيوط الضياء
نحو عينيك امشي على درجات الندى
والأغاني عصافير خضراء ترتف حولي
وتمسح بالريش حزني المعتق..
يا أيها الفلق المتوهج في رحم الليل
يا شعلة الروح
ياشهقة في دمي.[44]

إنها إشراقة للروح وسر للوجود، تبدو معه الأشياء صافية رقراقة ويغدو النور والضياء «رمزا

للارتحال في الفضاء والارتقاء في الفضائل»[45] في رحلة العروج الذي تسلك فيه الذات معارج الضياء، وتصعد فيه درجات درجات حتى تحصل لها المكاشفة والمعرفة.

ومن الرموز الطبيعية:

يقول عثمان لوصيف:

جمالك يغمر كل الوجود

أحسك في روعة الفجر

أسمع صوتك بين النجوم

وألمس ريحك في كل زنبقة

أو غيمة شارده.[46]

تتجلى وحدة النفس هنا عند الشاعر كما عند غيره من الصوفية تلويحا وتمثيلا رمزيا لوحدة الوجود «فالنفس أو الأنا واحدة من حيث تعيينها الذاتي، إلا أنها تضم صفات وقوى وأفعالا وشؤونا كثيرة، وهذه الكثرة موجودة في النفس الواحدة، والنفس الواحدة سارية فيها ومحيطة بكل ما يصدر عنها، وكما التبست النفس الواحدة بصور الحس المتنوعة، التبس الوجود الواحد بالأشياء فظهر في كل عين».[47]

أحبك..آه، أحبك..

أية شمس كستك سنى وألوهية

وحبتك غنى، حميمية

أي غيب تمخض عنك.

وأي إله أفاض عليك نفائسه اللؤلؤيه.[48]

وهذا ما رمز إليه الصوفية بالفاعل الواحد الذي احتجب بالأسباب، فإذا أزال ذلك الواحد لم ير غيره فاعلا، على أن هذا التجلي والاهتداء لا يكون إلا بنور الفعل الإلهي المتكشف أولا.[49]

[1] - علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص 104.

[2] - عبد الحميد هيمة، البنيات الأسلوبية في الشعر الجزائري المعاصر، ص 72.

[3] - عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص 63.

[4] - صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصر، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص 192.

[5] - عثمان مقيرش، الخطاب الشعري في ديوان قالت الوردة، دار النشر المؤسسة الصحفية بالمسيلة، 2011، ص 149.

[6] - براءة، ص ص 49-50.

[7] - عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 2000، ص 38.

[8] - عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص 369.

[9] - براءة، ص 59.

[10] - براءة، ص 14.

[11] - عاطف جودة نصر، المرجع السابق، ص 369.

[12] - أدونيس، الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط3، (د.ت)، ص 131.

[13] - براءة، ص 45.

[14] - آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصر، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر، 2009، ص 80.

[15] - براءة، ص 45.

[16] - آمنة بلعلى، المرجع السابق، ص 81.

[17] - براءة، ص 44.

[18] - براءة، ص 55.

[19] - أحمد بهجت، بحار الحب عند الصوفية، مؤسسة المعارف للطباعة، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص 45.

[20] - إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف-الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر (1945-1995) -، دار الأمين، القاهرة، د.ط، 1996، ص 43.

[21] - براءة، ص 48.

[22] - فريد الدين العطار، منطق الطير، تر: بديع محمد جمعة، دار آفاق، ط1، 2014، ص 375.

[23] - براءة، ص 48.

[24] - أدونيس، الصوفية والسوريالية، ص 40.

[25] - براءة، ص 48.

[26] - إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف، مصر، 1969، ص ص 265-266.

[27] - أماني سليمان داود، الأسلوبية والصوفية، ص 871.

[28] - براءة، ص 71.

[29] - عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي-حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي-، دار الرشد للنشر، سلسلة دراسات، الجمهورية العراقية، د.ط، 1979، ص 266.

[30] - حسين العوادي، المرجع السابق، ص 29.

[31] - عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص 209.

[32] - عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص 306.

[33] - جمال حسني يوسف، صورة النار في الشعر المعاصر-مصادرها، دلالاتها، وملامحها الفنية-، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2008، ص 54.

[34] - براءة، ص 70.

[35] - براءة، ص ص 70-71.

[36] - براءة، ص 73.

[37] - جمل حسني يوسف، صورة النار في الشعر المعاصر، ص 213.

[38] - براءة، ص 46.

[39] - عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، ص 422.

[40] - براءة، ص 13.

[41] - براءة، ص ص 47-48.

[42] - براءة، ص ص 16-17.

[43] - عاطف جودة نصر، الخيال مفهومهاته ووظائفه، دار الكتب، مصر، د.ط، 1984، ص 83.

[44] - براءة، ص 47.

[45] - عبد الحميد هيمة، المرجع السابق، ص 424.

[46] - براءة، ص 45.

[47] - عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص 291.

[48] - براءة، ص 51.

[49] - عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص 293.